



معرف الكائن الرقمي للمقال: (DOI)10.54239/2319-022-001-013

## الشيخ طاهر الجزائري واليقظة العربية العلمية في بلاد الشام

1852-1920م

Sheikh Taher al-Jazairi and the Arab scientific Awakening  
in the Levant 1852-1920

د. عزيز خيثر\*

جامعة مولود معمري - تيزي وزو -

azizkhitergeo@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023 / 01 / 20 تاريخ المراجعة: 2023 / 02 / 05 تاريخ القبول: 2023 / 05 / 08

### الملخص:

يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على أحد أبرز الشخصيات المنحدرة من أصل جزائري، كان لها عظيم الأثر، وكبير الدور في قيام اليقظة العربية العلمية في بلاد الشام خاصة والمشرق العربي عامة خلال الفترة المعاصرة. ويحاول أن يكشف حجم وشكل إسهام هذه الشخصية، ودرجة تأثيرها في الحياة العلمية والثقافية، فضلا عن أبعاد الفعل الثقافي الذي قامت به في بلاد المشرق.

ولعل تتبع سيرة ومسار هذه الشخصية بالدراسة والتمحيص يسمح بالتعرف على أحد أبرز أعلام الفكر، ورواد المشروع النهضوي والإصلاحي الذي عرفته بلاد المشرق خلال هذه الفترة، مثله في ذلك مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده... وغيرهم من أقطاب الفكر والإصلاح الذين عملوا على نفخ غبار الجهل والأمية والجمود عن الأمة العربية والإسلامية، وسعوا بكل ما كان متاحا لهم من أجل نهضة المسلمين ونشلهم من التخلف الذي كانوا غارقين فيه، وصيانة الأوطان العربية والإسلامية من الأخطار التي كانت محدقة بها، أين كان لهذه

\* د. عزيز خيثر، جامعة تيزي وزو



الشخصية قسط وافر من المساهمة في هذا العمل أو المشروع الحضاري لاسيما في شقه الثقافي.

الكلمات المفتاحية: طاهر الجزائري؛ الإصلاح؛ النهضة؛ إحياء التراث؛ التعليم؛ المدارس؛ القومية؛ بلاد الشام.

### Abstract :

This research seeks to shed light on one of the most prominent figures of Algerian descent, who had a great impact on the establishment of the Arab Scientific awakening in the Levant during the contemporary period. He tries to reveal the size and form of this personality's contribution to scientific and cultural life, as well as the dimensions of the cultural act she carried out in the Levant.

Perhaps tracing the path of this personality by studying allows us to get acquainted with one of the most prominent pioneers of the Renaissance and reform project that the Levant knew during this period, such as Jamal al-Din al-Afghani and Muhammad Abdu ... And other reformers, who worked to shake off the dust of ignorance and inertia about the Arab and Islamic nation, where this figure had a lot of contribution to this civilizational project, especially in its cultural part.

**Keywords:** Tahir Al-Jazairi; reform; Renaissance; Revival of Heritage, Education; schools; nationalism; Levant.

### -مقدمة:

شهدت الحياة الثقافية في بلاد المشرق منذ النصف الثاني أو الثلث الأخير من القرن 19 م وإلى غاية الربع الأول من القرن 20 م عدة تغيرات وتطورات كانت توجي بميلاد مشروع ثقافي جديد، اختلف المؤرخون والمفكرون العرب في الاتفاق على الاصطلاح الذي يناسبه ويعبر عنه بدقة، بين من يراه "نهضة ثقافية" وآخرون اعتبروه مجرد "يقظة ثقافية" لم ترق إلى مستوى المشروع النهضوي. وبغض النظر عن التحديد اللفظي الدقيق لهذا المشروع الذي عرفته بلاد المشرق خلال هذه الفترة، إلا أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال نفي حصول تحوّل أو تطور مس الحياة الثقافية والفكرية في هذه المنطقة، أدى إلى صحتها وانتعاشها بشكل ملحوظ في مجالات عديدة لاسيما الأدبية واللغوية .



ساهمت العديد من الظروف والعوامل الذاتية والموضوعية في حصول هذا التحول، كما برزت العديد من الشخصيات التي كان لها دور كبير وبارز في تنشيط الحياة الثقافية والفكرية في بلاد المشرق، بعدما رفضت حالة الركود والجمود الفكري الذي كانت تعيشه البلاد العربية، وقامت بالدعوة للتجديد والإصلاح، كما طالبت بتحرير الفكر والاجتهاد، وكسر قيود الجهل والتقليد، ونفض غبار ورواسب التخلف التي رمت بكل عليها على الأمة. ولم تكتف هذه الشخصيات بتوجيه هذه الصيحات أو الدعوات لإيقاظ الأمة من سباتها، وإنما بذلت جهودا حثيثة وقامت بأعمال وأنشطة ثقافية وفكرية واجتماعية كثيرة كان لها دور كبير في ظهور هذه الصحوة، بعدما زرعت بذور الأمل ونفخت في روح هذه الأمة مفاهيم وأفكار تنويرية تدعو وتحث على النهضة والتجديد والإصلاح الذي كانت ترى فيه طوق النجاة من براثن الجهل والتخلف، ومن جهة أخرى تقوية مناعة الأمة والنجاة من السيطرة الأجنبية التي كانت تهدد البلاد العربية والإسلامية، الأمر الذي جعل هذا المشروع النهضوي-الإصلاحي يحمل أبعادا سياسية على الرغم من الثوب الثقافي الذي جاء فيه.

لقد سجل لنا التاريخ الحديث والمعاصر للأمة العربية أسماء العديد من الشخصيات التي يمكن عدّها أعلاما في الفكر، وروادا للمشروع النهضوي والإصلاحي الذي عرفته بلاد المشرق خلال هذه الفترة لاسيما المعاصرة منها، مثل جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، رفاعه الطهطاوي، عبد الرحمن الكواكبي، محمد رشيد رضا، أحمد أمين....، وأخذت حقها من الدراسة حتى غدت أسماؤها عناوين تلهج بها كل الألسن ومرادفة لهذه النهضة أو اليقظة، في حين هناك أسماء أخرى يبدو بأن التاريخ، أو بالأحرى المؤرخون لم ينصفوها ويعطوها حقها من الدراسة والبحث والإضاءة، بالشكل الذي يفي بالدور الكبير الذي قامت به في هذا المشروع. ولعل من بين أبرز هذه الشخصيات الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي الذي يعد أحد أبرز أعلام بلاد الشام الذي كرس حياته كلها للعلم والمعرفة والثقافة والإصلاح، وعاش حاملا لهموم الأمة مشتغلا على اكتشاف أدائها وتشخيص الدواء لها. بحيث قام بالكثير من الأعمال في سبيل النهوض بهذه الأمة وإنقاذها من براثن الجهل والتخلف، لاسيما العلمي والثقافي الذي كانت تشكوه. بل حتى



أن هذا الرجل كان يمتلك تصورا لمشروعه النهضوي، الذي عمل جاهدا من أجل تحقيقه، أين حرص كل الحرص على أن يكون لدعوته الإصلاحية صدى، ولعمله الفكري والثقافي أثر في تاريخ هذه الأمة. وبالنظر إلى كل ما سبق ألا يمكن أن نعد الشيخ طاهر الجزائري أحد أعمدة أو رواد اليقظة الفكرية والعلمية في بلاد المشرق؟.

#### 1- الشيخ طاهر مولده ونشأته:

ولد الشيخ في دمشق سنة 1852م، أما نسبه فهو بن صالح بن أحمد حسين بن موسى بن أبي القاسم السمعوني الوغليسي (نسبة لواد وغليس في بجاية). ولقد نسب الشيخ إلى دمشق بالمولد، وإلى الجزائر لأنها البلد الذي جاءت منه أسرته مهاجرة إلى دمشق بعد الاحتلال الفرنسي (الجزائري، 2007، صفحة 12)، وحسب المؤرخ حازم زكريا فان أسرة الشيخ قد جاءت إلى دمشق في الهجرة الجزائرية الأولى إلى بلاد الشام سنة 1846م (أنظر التعليق رقم 01)، عندما استقرت حوالي 500 أسرة جزائرية (أنظر التعليق رقم 02) في دمشق (الدين، 2011، الصفحات 20-22).

كان أبوه رجل علم ودين لذلك عندما قدم إلى دمشق أصبح فقيه المالكية ومفتي الشام (الجزائري، الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية، 1986، صفحة 7)، قال عنه الزركلي في كتابه "الأعلام" بأنه فاضل من الجزائر قدم إلى دمشق ومن آثاره "رسالة في غرائب الخلاف بين الأئمة" (خضرة، 2018، صفحة 131).

إن ما تجدر الإشارة إليه بخصوص أوضاع بلاد الشام والمنطقة العربية عامة في هذه الفترة التي عرفت هجرة أسرة الشيخ، هي أنها كانت تعرف حالة من الضعف الفكري والثقافي، بحيث كانت هذه المنطقة خلال القرن 19م تسبح في بحر من التخلف والجمود، باستثناء التجربة التحديثية العابرة التي عرفتتها مصر في عهد محمد علي باشا في النصف الأول من هذا القرن (1805-1848م)، لكن في المقابل بدأت إرهابات النهضة أو اليقظة العربية خلال هذه الفترة أيضا وحتى ما قبلها بقليل (أنظر التعليق رقم 03)، وهي الفترة التي تزامنت مع تدفق الهجرات الأولى للمهاجرين الجزائريين لبلاد المشرق بعد تعرض بلادهم للاحتلال الفرنسي لاسيما في بلاد الشام التي احتضنت الأمير عبد القادر، وكانت نقطة انطلاق هذه النهضة في الثلث الأخير من القرن 19م، الأمر الذي يجعل هذا



التزامن يحمل على التساؤل عن مدى تأثير أو مساهمة تلك الموجات من الهجرة الجزائرية في ذلك التحول الذي شهدته بلاد الشام والمشرق عموما (خرفي، الجزائر ودورها في النهضة العربية الحديثة في المشرق، 1975، صفحة 5).

ولعل الذي يجعل من هذا التساؤل جدير بالطرح هو أن من بين أهم مميزات الهجرة الجزائرية منذ ظهورها بعد الاحتلال الفرنسي هي أنها لم تقتصر على البسطاء من الفلاحين والكادحين فقط، وإنما مست الكثير من المثقفين ورجال الدين وأعيان البلاد أيضا، وأغلب هؤلاء لم يهاجروا بحثا عن لقمة العيش، ولكن بحثا عن كرامة العيش، وخوفا على تربية أبنائهم ورغبة في تعليمهم، فتركوا من أجل ذلك وظائفهم ومنحهم ووطنهم وكل ما يملكون فيه، وتحملوا مشاق الهجرة وعذاب فراق الأوطان ليضمنوا نجاح وسعادة أبنائهم التي كانوا يحلمون بها. وبالفعل بلغ عدد كبير من الجزائريين المهاجرين وأبنائهم درجة عالية من العلم والمعرفة لاسيما في بلاد المشرق، وبالأخص في مصر وسوريا، واستطاع البعض منهم القيام بأدوار هامة كان لها بالغ الأثر على الحياة الثقافية والسياسية لهذه البلدان (هلال، 1989، صفحة 88، 87). والأمثلة أو الشواهد التاريخية على هذه الفكرة أكثر من أن تعد أو تحصى، وشخصية هذه الدراسة من أبرز العينات عما ذهبنا إليه، فالشيخ عبد الحميد بن باديس قد قال عنه: "هذا الأستاذ العظيم من أبناء الجزائر الكثيرين الذين ظهر نبوغهم في غير وطنهم، فدلوا أن الطينة الجزائرية طينة علم وذكاء إذا واتتها الظروف" (مصيطفى، 2018، صفحة 490).

بالعودة إلى مولد ونشأة الشيخ العلمية فقد تعلم الشيخ طاهر الجزائري في البداية على يدي والده الشيخ صالح مبادئ اللغة العربية وعلوم الشريعة، ثم التحق بعد ذلك بالمدرسة التي وسع فيها مداركه ومعارفه وتعلم العديد من اللغات الشرقية كالتركية، الفارسية، العبرية ... وبعد تخرجه من المدرسة اتصل ودرس عند عدد من المشايخ والعلماء مثل عبد الرحمن البوسنوي والشيخ عبد الغني الغنيمي الذي كان له بالغ الأثر في تكوينه العلمي وتوجيهه نحو الفكر الإصلاحى والقيام بأعبائه.

وفي الوقت الذي كان يتردد فيه على هؤلاء العلماء والمشايخ دخل الثانوية الحكومية التي تعلم فيها الرياضيات والتاريخ والجغرافيا وعلوم الطبيعة، كما تعلم فيها وأتقن اللغة



الفرنسية. ولقد كان الشيخ مجدا في دروسه ومجتهدا في طلب العلم، ما جعله يكتسب قاعدة علمية أهله فيما بعد للتضلّع في العديد من العلوم مثل الشريعة والتاريخ وعلوم اللغة والأدب، حتى قيل عنه بأنه كان: "معلّمة (أنسيكلوبيدية) سيارة، أو خزانة علم متنقلة" (الدين، 2011، الصفحات 22-28). ولعل الذي ساعد الشيخ على تحقيق هذا النبوغ في العلم فضلا عن تفرغه التام ونهمه الشديد في طلبه، هو أيضا حافظته القوية (الجزائري، الكافي في اللغة، 2007، صفحة 12).

كما أن من الأمور العلمية التي تميز بها الشيخ هو إحاطته بمعرفة الكتب المطبوعة منها والمخطوطة، حتى قال عنه أيضا تلميذه محمد سعيد الباني بأنه كان: "معجم كتب سيار، يضارع "كشف الضنون" أو "فهرست ابن النديم". ولولعه بالكتب اقتنى وجمع لنفسه مكتبة ثمينة بلغت مئات المجلدات فيها العديد من النوادر المخطوطة (الباني، 1920، صفحة 65).

## 2- الأسس الفلسفية للمشروع النهضوي عند الشيخ طاهر:

إن الغرض من الحديث عن الأسس الفلسفية التي بنى عليها الشيخ طاهر الجزائري مشروعه النهضوي هو فهم نظرة الشيخ لواقع الأمة المعاش آنذاك، وتصوراتهِ للمستقبل الذي كان يبتغيه لهذه الأمة، بالشكل الذي يساعدنا ليس فقط على معرفة طبيعة حقل نشاط العمل الذي اختاره لنفسه، وإنما أيضا الوسائل التي اعتمد عليها في هذا المشروع، بالشكل الذي يفسر هذه القنوات أو المنطلقات الفكرية لمشروعه، ويبين الأسس الفلسفية التي كان يركز عليها في عمله.

حسب الأستاذ صالح خرفي فإن الشيخ طاهر لا يمثل شخصية فكرية إصلاحية فحسب، وإنما ظاهرة متعددة الجوانب مست نشاطاتها وأفكارها مختلف المجالات، بحيث نجده في حقل الإصلاح الاجتماعي والديني، في البحث العلمي وحركة النشر والإحياء، في البحث التاريخي، في التربية والتعليم، في الشؤون الوطنية والوعي القومي (خرفي، الجزائر ودورها في النهضة العربية الحديثة في المشرق، 1975، صفحة 8). وهذا أحد تلامذته يوسف أسعد داغر يقول عنه: "فقد كان بنفسه مجموعة نفيسة من العلوم، ومكتبة سيارة، ضمت المفسر، والمحدث، والأصولي، والفقيه، والفيلسوف،



والمربي" (داغر، 1983، صفحة 261). أما تلميذه الآخر محمد سعيد الباني فقد قال عنه: "... فقد كان من نوابغ الرجال الذين ازدان بهم الزمان وافتخر، قلّ من يدانيه من معاصريه بإحاطته وسعة اطلاعه، جمع بين المعقول والمنقول، ومزج القديم بالحديث، أخذ من كل علم لبابه ونبذ لفاظته، فكُنْتُ تجد منه العالم الديني والمدني والرياضي والطبيعي والسياسي والأديب والمؤرخ والأثري والاجتماعي والأخلاقي والكاتب والشاعر، فكان عنده من كل علم خبر، وله في كل واد أثر، فهو دائرة المعارف ومفتاح العلوم وكشاف مصطلحات الفنون وقاموس الأعلام" (الباني، 1920، صفحة 73).

أما عن فلسفته في الإصلاح والعمل أو في مشروعه النهضوي، فقد كانت تنطلق أساسا -في حدود ما اطلعنا عليه- من قناعة الشيخ بأن سبب ضعف هذه الأمة راجع إلى جهل الناس بما كان عليه أجدادهم من حضارة وركي وسؤدد، ووجد العلاج في إطلاعهم على ذخائر ماضيهم ودينهم، ليعيد إليهم الثقة بأنفسهم وبأمتهم وبقدرتهم ليس فقط على البقاء، وإنما أيضا على التحدي والبناء (الدين، 2011، صفحة 5)، لذلك كان يرى بأن على الخلف إحياء ما تركه السلف مع العمل على تهذيبه وتقريبه من الأذهان ليسهل فهمه وأخذه (الباني، 1920، صفحة 78). ولعل ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن الشيخ طاهر قد لخص لنا انطلاقا من هذا الأساس مفهوم النهضة العربية باعتبارها حركة فكرية عمت البلاد العربية خلال النصف الثاني من القرن 19 م، نَهت العرب لاسيما بالمشرق لماضيهم المجيد، وعملت على إعادة إحيائه وبعثه لمواجهة تحديات ومشاكل واقعهم المتخلف.

ولما كان يرى الشيخ بأن جهل الناس بماضيهم مرده بالدرجة الأولى إلى تفشي الأمية بشكل كبير في أوساطهم، كان في المقابل يؤمن بأن علاج هذا المرض يكمن في العلم والتعليم (الدين، 2011، صفحة 6)، ولعل هذا ما يفسر لنا الاهتمام الكبير للشيخ بهذا المجال في عمله. ومن جهة أخرى يرى البعض بأن سبب اهتمام الشيخ بالتعليم وفي نفس الوقت عمله على محاربة الجهل كأداة للنهوض بالأمة، راجع إلى أنه كان يرى بأن فتنة بلاد الشام سنة 1860 م كان سببها الجهل، وأن المعرفة تولد التنور، والتنور يقتل التعصب ويولد المثل العليا المشتركة (برج م.، 1972، صفحة 32).



ولقد كان يؤمن الشيخ أيضا بأن هذا التعليم لا يمكن أن ينجح إلا إذا قام على ركنين أساسيين هما :

الأول : تهيئة المدارس العصرية التي تنافس المدارس التبشيرية التي كان الشيخ يُعدّها الركيزة الأولى للاستعمار.

الثاني : إعداد المناهج والكتب الملائمة لروح العصر.

والملاحظ على العمل والفكر التربوي التعليمي للشيخ حسب ما نقله عنه تلامذته ودارسي سيرته هو اهتمامه وحرصه الشديد على أمرين هما :

الأول : تعليم البنات على اعتبار أن المرأة المتعلمة حسبها كانت تعني أسرة متعلمة، بل كان يعتقد بأن كل بيت سيتحول إلى مدرسة.

الثاني : تعليم اللغات الذي كان يرى فيه الوسيلة الوحيدة للاطلاع على ما عند الآخرين، كما كانت اللغات في نظره الجسور التي تربط بين الأمم والأجناس، وتسمح بالاستفادة من الخبرات والصناعات المختلفة، أما الجهل بها فكان يعني عنده الانعزال والتخلف. فالشيخ كان يقول عندما يدعو إلى تعلم اللغات بأن ذلك يساعد على فهم معنى الحياة، وليس من أجل الزهو أو التفرنج والاندماج بالأجنبي وتقليده، كما كان يقول أيضا : "تعلموا ما تيسر لكم تعلمه ولو لغة مالطا، فقد يجيء زمن تحتاجون إليها، وإياكم أن تقولوا إنها لا تدخل في اختصاصنا، فالعلم كله نافع والمرء يتعلم ما حسنت به الحياة" (الباني، 1920، صفحة 66). ولعل الشيخ في هذه المسألة كان يتمثل قول الشاعر صفي الدين الحلي الذي قال:

بقدر لغات المرء يكثر نفعه      فهي له في الملمات أعوان.

فبادر إلى حفظ اللغات مسارعا      فكل لسان في الحقيقة إنسان.

هذا ولم يكتف الشيخ بمحاربة الجهل فقط، وإنما كان يدعو ويعمل على محاربة المفاهيم والعادات التي ألبست ثوب الدين وهو منها بريء، وأخطر تلك المفاهيم في نظره هي "التقليد الأعمى" و"الشعور بالكمال الزائف"، ولقد كانت حربه ضد هذه المفاهيم مثل حربه على الشعوذة والبدع والاتجار بالدين، ودعا في المقابل إلى العودة إلى منابع الأصيلة للدين، الكتاب والسنة والاقتداء بهما.



فالشيخ طاهر كان من العلماء المصلحين المتدينين الذين كانوا يدعون للحفاظ على ثوابت الإسلام وأسسها، وللتمسك بالشخصية العربية الإسلامية. لكن في نفس الوقت كان ضد الانغلاق على الذات، بل طالب بالانفتاح على الغرب والاستفادة من علومه الحديثة (الدين، 2011، صفحة 6)، وهذا المنطلق من أهم السمات التي ميّزت هذه الشخصية عن غيرها من الشخصيات الدينية الكثيرة التي كانت آنذاك منكفئة على ذاتها وقابعة في عباؤها، رافضة لكل ما هو آت من الغرب، غير آبهة بما كان يحصل خارج قوقعتها من تطورات علمية وتكنولوجية. فدعوة الشيخ للتمسك بالتراث كانت ممزوجة بالدعوة للاهتمام بتعريب العلم الحديث عن الأمم المتقدمة، ثم مزج القديم بالحديث والتوفيق بينهما بالشكل الذي لا يُضَيِّع حسبه ميراث الآباء ولا يحرم من مناهل الأجانب (الباني، 1920، صفحة 78).

يبدو جليا من خلال ما سبق بأن دعوة الشيخ للإصلاح والنهوض بالأمّة وأدوات العمل التي كان يؤمن بقدرتها على القيام بأعباء هذه المهمة لم تخرج عن الإطار الثقافي السلمي، فهو لم يكن يدعو للثورة المسلحة أو اعتماد السياسة كأداة في العمل، وإنما ركز بشكل كبير على التعليم ومحاربة الجهل، والدعوة للتمسك بثوابت الأمّة من دين ولغة. ولعل هذا الأمر هو الذي جعل تلميذه محمد كرد علي يلخص رسالة أو مشروع الشيخ النهضوي بالقول بأنه "كان صاحب ثورة فكرية لا صاحب ثورة دموية"، على الرغم من أن الشيخ في دروسه وحلقاته كان يقترح في حكومة الأتراك ويحملها مسؤولية تخلف العرب، كما كان ناقما على سياسة التتريك، إلا أنه مع هذا كان لا يرى أن يجابه الضعيف صاحب القوة حتى لا يسحقه، وبدلا من ذلك كان يرى بأن على الأمّة الضعيفة التي تحاول تحرير نفسها من القيود أن تعد أسباب الإنعتاق والنهوض بالاعتماد على العلم والأخلاق، أي أنه كان يدعو حسب صالح خرفي "للفراق من دون دم مهراق" (خرفي، الجزائر ودورها في النهضة العربية الحديثة في المشرق، 1975، صفحة 22، 23).

ما يلاحظ في الأخير على فكر الشيخ طاهر الجزائري في هذا الخصوص هو أنه كان يعبر عن فهم دقيق إلى حد بعيد لواقع الأمّة آنذاك، فضلا عن امتلاكه لتصور عن كيفية معالجة مكامن الخلل التي كان يشكوها ذلك الواقع، استطاع من خلاله تشخيص



العلل التي كانت الأمة العربية والإسلامية تعاني منها وأسبابها، مع اقتراح طرق علاجها. والملفت في سيرة الشيخ هو أنه باشر بنفسه في تنفيذ هذا المشروع بدعم من أصدقائه وتلاميذه الذين كانوا يتقاسمون معه هذه الأفكار ويؤمنون بها (الدين، 2011، صفحة 7).

### 3- دور الشيخ الطاهر في قيام اليقظة العلمية بالمشرق:

من أهم السمات التي طبعت مسيرة وشخصية الشيخ هو تعدد مجالات النشاط التي اشتغل عليها في حياته، بحيث ترك أثارا متعددة لاسيما في الحياة الاجتماعية والثقافية لبلاد الشام، كلها كانت تشهد على الحيوية الكبيرة التي تمتعت بها هذه الشخصية والجهود الحثيثة التي بذلها من أجل نهضة هذه الأمة، ومن جهة أخرى كانت تلك الحيوية من أهم الأسباب التي جعلته يبرز كشخصية فاعلة ومؤثرة في الوسط الذي عاش فيه.

ولعل ما يمكن أن يلخص لنا أهمية الدور أو الأعمال التي قام بها الشيخ في حياته هو القول بأنه كان أحد أبرز رواد النهضة العربية في بلاد المشرق، والأب الروحي لأغلب رواد الحركة العربية القومية التي ظهرت منذ مطلع القرن 20م. بحيث كان لوحده مدرسة فكرية، كما كان عالما عاملا سطع نجمه في سماء بلاد الشام كأحد أبرز المثقفين المفكرين والمصلحين في المجتمع والدين والثقافة. إن من بين أهم الأعمال التي قام بها، وكان لها دور كبير في قيام اليقظة العلمية ببلاد الشام ما يلي:

#### 3-1- الاهتمام بقطاع التعليم:

كان التعليم في نظر الشيخ الركيزة التي يجب أن يقوم عليها مشروع نهضة الأمة بعدما شخّص داءها في الجهل والأمية، فهو الذي كان يقول دائما بأن النهضة في المشرق لا تفلح ما لم يكن رائدها العلم الصحيح (الباني، 1920، صفحة 79)، لذلك أولى هذا المجال اهتماما بالغا واشتغل عليه كثيرا. ولقد تجلّى هذا الاهتمام في جهود الشيخ من أجل إنشاء وتهيئة المدارس العصرية في سورية، وأيضا في إعداد المناهج العلمية وإنشاء المكتبات.



وما تجدر الإشارة إليه هو أن الشيخ لم يستطع القيام بكل هذه الأعمال إلا بعد أن استطاع الدخول في الوظيفة الحكومي، وإقامة علاقات مع المسؤولين مكنته فضلا عن شهرته العلمية من إقناع حكام ولاية سورية الأتراك بمشروعه الإصلاح في التعليم، ولقد كان من حسن طالع الشيخ أن تصادفت فكرته مع تولي مدحت باشا المعروف باسم "أبي الدستور" ولاية دمشق سنة 1878م، أين ظل الشيخ من ورائه يحثه على الاهتمام بالتعليم ويدعوه إلى ضرورة إصلاحه، كما استطاع أن يقنعه بخطورة نهل شباب المسلمين من مدارس الإرساليات التبشيرية على البلاد العربية والدولة العثمانية على السواء، الأمر الذي جعل مدحت باشا يساير رأي الشيخ ويقتنع به.

كما نجح الشيخ أيضا في إقناع بهاء بك رئيس ديوان الولاية بمشروع إنشاء "جمعية المقاصد الخيرية" سنة 1879م التي وُجّه نشاطها لفتح المدارس وتهيئتها وإقامة مطبعة للكتب (الباني، 1920، صفحة 65)، وفي سنة 1882م تحولت هذه الجمعية الخيرية إلى "مجلس للمعارف" (يشبه الوزارة) تولى إدارة شؤون التعليم، أين عمل فيه الشيخ كنائب للرئيس (برج م، 1990، الصفحات 9-12)، وأيضا تم تعيينه مفتشا عاما على المدارس الابتدائية، أين كان الشيخ خلال تأديته لهذه الوظيفة يراقب الأساتذة والتلاميذ ويتعهدهم بالنصائح والتوجيه، ولم يكن يترك وسيلة لإصلاح أساليب التعليم التي كانت في غاية السقم وفي أسفل دركات الانحطاط إلا وتصدى لها (الباني، 1920، صفحة 15). وهنا بدأت تظهر حيوية الشيخ ونشاطه الإصلاحي بشكل أبرز، خاصة عندما بدأ في تأليف عدد من كتب المناهج التعليمية ووضع البرامج لها، ومن مؤلفاته في هذه الفترة "الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية"، "مد الراحة في أخذ المساحة"، "مدخل الطلاب إلى فن الحساب" ... (الدين، 2011، صفحة 36).

ولعل ما ينبغي التعرف عليه بخصوص مضمون مؤلفات الشيخ خلال هذه الفترة أو كتبه الموجهة للتلاميذ، هو أن الشيخ كان يجمع فيها شتات المسائل المبعثرة في الكتب، ثم يعرضها بأسلوب بسيط غالبا ما يكون في شكل سؤال وجواب حتى يسهل تناولها على أذهان الطلاب، وكان يضيف بين هاتين الطريقتين حواشي كثيرة ينتفع بها من هو أرقى من طبقة التلاميذ والمبتدئين، وكلها كانت سهلة المأخذ. وعن هذا الأسلوب في الكتابة



يذكر محمد سعيد الباني بأنه كان شيئا مبتكرا آنذاك، لكنه من أحسن ما كتب لنفع الأطفال والمبتدئين، غير أن أصحاب الآراء التافهة والحساد كانوا يعيبون على الشيخ هذا الأسلوب قائلين على سبيل التنكيت "ما هذه المؤلفات الصغيرة الأصبرة صبيان الكتاتيب، أين المجلدات الضخمة؟"، وفاتهم أن التعليم إذا لم يكن على أساس متين يراعي قدرات التلاميذ على الاستيعاب أتى المتعلم ناقصا (أنظر التعليق رقم 04)، كما فاتهم بأن هذا الأسلوب كان حجر الزاوية في نهضة المعارف في بلاد الشام (الباني، 1920، صفحة 19، 16).

وأما فيما يخص جهوده واهتمامه بالمكتبات كأداة مساعدة على التعليم وحفظ التراث، فبدعم من مدحت باشا ومعاونة بعض أصدقاء الشيخ، قام هذا الأخير سنة 1880م بتأسيس "المكتبة الظاهرية" في دمشق قرب الجامع الأموي، أين جمع فيها الكتب المخطوطة والنادرة بعدما كانت من قبل مهددة بالضياح والتلف، بل وعرضة للنهب والسرقعة عندما كانت موزعة أو متفرقة على المساجد والزوايا، فأصبحت هذه المكتبة قبلة لطلبة العلم والعلماء والمستشرقين بعدما ذاع صيتها. كما ساهم الشيخ في تأسيس مكتبة أخرى كبيرة في القدس هي "المكتبة الخالدية" في نفس العام (الدين، 2011، الصفحات 37-39). وعن دوره واهتمامه بالمكتبات قال عنه أسعد داغر: "هو الرائد الأول للمكتبات العربية في النهضة الحديثة في المشرق والداعية الأكبر لها ولقيامها، كذلك هو من أوثق العارفين بالكتاب العربي قديمه وحديثه، والمعرفين به والمفهرسين له والحريصين على جمعه وحفظه" (داغر، 1983، صفحة 261).

يضاف إلى كل هذه الجهود التي بذلها الشيخ في سبيل نشر التعليم وإصلاحه، قيامه بحملة إعلامية واسعة أينما حل وارتحل من أجل حث الأهالي على إرسال أبنائهم إلى المدارس، مبينا لهم بشى الوسائل والطرق أهمية العلم ودوره في بناء الأمم وصيانة الأوطان (الدين، 2011، صفحة 6).

إن هذه الجهود التي بذلها الشيخ في هذا المجال كان لها دور كبير في تنشيط الحركة التعليمية في دمشق، بعدما شهدت زيادة في عدد المدارس والمعلمين، كما أثمرت عن إدخال العديد من الإصلاحات ذات الطابع الثقافي كتأسيس الجمعيات، المطابع وإصلاح



المساجد ...، مما أدى إلى انتعاش الحياة العلمية خاصة بعدما ارتفع عدد الطلاب إلى 5 آلاف وعدد الطالبات إلى ألفين في دمشق وحدها.

ولإدراك أهمية هذا التحول الذي حصل للحياة العلمية بدمشق والذي كان للشيخ طاهر الجزائري دور كبير فيه، نلفت النظر إلى أن في هذه الفترة لم يكن في دمشق خلال هذه الفترة سوى مدرسة ثانوية واحدة، كان الدمشقيون يسمونها "عنبر" -نسبة لاسم أحد الأثرياء اليهود الذي كان يملك هذه الدار التي قامت الدولة العثمانية بتأميمها وتحويلها إلى مدرسة- (برج م.، 1972، صفحة 8)، وكانت الدراسة فيها باللغة التركية، حتى علم النحو للغة العربية كان يدرسه أستاذ تركي وباللغة التركية!، ولم تكن اللغة العربية آنذاك تعلّم إلا في مدارس التبشير المسيحية، ونفس الوضع كان تقريبا في بيروت، القدس، الموصل والبصرة ...، حتى قال محب الدين الخطيب عن هذا الحال بأن العروبة كانت آنذاك عنوانا لمدلول نسيه العرب، أما جيل الشباب العربي في هذه الفترة الذي لم ينهل العربية من مدارس التبشير المسيحية لم يجد سوى شخصية الشيخ طاهر الجزائري نموذجا يُقتدى به، ومنبعا يُنهل منه (برج م.، 1972، صفحة 8:9). أما محمد كرد علي فقد قال بأن الشيخ قد علم المعلمين أصول التعليم والتربية في زمن لم يكن فيه ما يقال له علم إلا بعض فروع الفقه، وبعض الأحاديث الموضوع أكثرها (علي، 1948، صفحة 644).

### 2-3- التأليف :

لقد كان الشيخ منذ صباه مولعا بالكتب جمعا ومطالعة، ولما اشتد ساعده على الكتابة والتأليف لم يتوان عن ذلك، فهو الذي كان يؤمن بدور الكتاب كحامل للعلم والمعرفة في بناء الأمم، وكان يرى أيضا بأن سبب تخلف العرب راجع إلى جهلهم بتراثهم، لذلك دعا إلى إعادة بعث وإحياء هذا التراث، ليس فقط من خلال التنقيب والبحث عن نفائس الكتب والمخطوطات القديمة وإعادة نشرها وتحقيقتها، وإنما حتّى في نفس الوقت على الكتابة فيما هم ويفيد هذه الأمة ويستطيع أن يساهم في حل مشاكلها، ولما لم يكن الشيخ من أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون بادر بنفسه هو إلى ذلك، بحيث لم يكتف بالدعوة والحث، وإنما ألف العديد من الكتب والرسائل، بحيث يذكر تلميذه محمد كرد



علي بأن الشيخ قد ألف نحو 40 رسالة وكتاب في مختلف العلوم، وأحيا عشرات كتب القدماء (علي، 1948، صفحة 644).

ويمكن تقسيم آثار الشيخ طاهر إلى ثلاثة مجموعات هي :

- الأولى : هي الكتب التي ألفها في موضوعات مختلفة وضمها علمه وثقافته، مثل "شرح خطب ابن نباتة"، "إرشاد الألباء"، "التبيان والتقريب"، "توجيه النظر"، "الجواهر الكلامية"....

- الثانية : هي الكتب والرسائل التعليمية الصغيرة التي وضعها للمبتدئين والناشئين خاصة في العقيدة وعلوم اللغة والحساب، مثل "مد الراحة في أخذ المساحة"، "مدخل الطلاب إلى فن الحساب"....

- الثالثة : هي الكتب التي قام بتحقيقها وإحيائها من خلال إعادة نشرها وطباعتها من نفائس التراث، مثل "الأدب الصغير لابن المقفع"، "الحنين إلى الأوطان"، "روضة العقلاء"، "الفوز الأصغر لمسكويه" ... (المبارك، 1992، الصفحات 51-55).

وعن اهتمامه بالكتب كأداة لبعث وإحياء أمجاد هذه الأمة يقول محب الدين الخطيب: "وأهم كتب السلف النافعة التي نشرها الناشرون، إنما نشرها بإشارته وتحريضه، وأنا وكل ما نشرته لسنا إلا قطرة من بحر الخير الذي كان يتدفق من صدر هذا العالم العامل" (خرفي، الجزائر ودورها في النهضة العربية الحديثة في المشرق، 1975، صفحة 10)، ويدعمه في هذا زميله محمد سعيد الباني بالقول: "لا أعلم أحدا من معاصري فقيدنا أحاط بمعرفة الكتب المدونة بلسان العرب مثل إحاطته، فما من كتاب مخطوط أو مطبوع إلا وقد اطلع عليه أو عرف عنه شيء في الجملة...، وكم من كتب برزت إلى عالم الطباعة والظهور بدلالاته وهديه بعد أن كانت في طي الخفاء آيلة إلى الدثور" (الباني، 1920، صفحة 65).

### 3-3- تكوين النخب :

لقد تربى وتعلم على يدي الشيخ جيل من الشباب العربي لاسيما في دمشق، فمنه نهلوا العلم والمعرفة والفكر، وبه اقتدوا في العمل والتوجه حتى باتوا من أبرز النخب المثقفة والفاعلة في بلاد المشرق ككل وليس في الشام فقط.



ولعل الذي ساعد الشيخ في تكوين هذه النخب مزاولته للتدريس في المدرسة منذ 1878م، أين بدأ في زرع أفكاره التنويرية والإصلاحية في عقول تلاميذه الصغار، غير أن الوسيلة التي كان لها أبلغ الأثر في تكوين هذه النخب حسب اعتقادنا هي "الحلقة العلمية" التي أنشأها الشيخ في دمشق والتي تعرف "بالحلقة الظاهرية"، أو "الحلقة العلمية الكبيرة" (1)، بعدما أصبح الشيخ صاحب مدرسة فكرية.

وعن هذه الحلقة قال محب الدين الخطيب الذي أنشأ بدوره حلقة أسماها "الحلقة العلمية الصغيرة" كان يقوم فيها بنقل ما تعلمه في الحلقة الكبيرة (خرفي، مذكرات محب الدين الخطيب، 1972، صفحة 95)، بأنه "قلما يسمح الزمان بمثلها في بلد واحد، لاسيما إذا كان ذلك البلد في مثل حالة النوم الذي كانت عليه دمشق مستغرقة فيه" (برج م، 1972، صفحة 17). كان يتم فيها تعلم العلوم الحديثة، دراسة التاريخ، اللغة العربية وآدابها، وفيها كان يدعو الشيخ للانفتاح على الغرب وأخذ ما ينسجم منه مع الدين الإسلامي.

ومن أهم رواد هذه الحلقة من المشايخ والعلماء جمال الدين القاسمي، عبد الرزاق البيطار، سليم البخاري ...، ومن الشباب ثلة تخرج منها رواد النهضة والحركة العربية القومية الحديثة (الدين، 2011، صفحة 42)، مثل محمد كرد علي الذي أصبح أول رئيس لمجمع اللغة العربية في دمشق ووزيرا للمعارف في الحكومة العربية، ومحب الدين الخطيب الذي أسس "جمعية النهضة العربية" سنة 1906م، عبد الحميد الزهراوي الذي ترأس أول مؤتمر عربي في باريس سنة 1913م، سليم الجزائري (ابن أخ الشيخ طاهر) الضابط السامي في الجيش العثماني، ومؤسس "الجمعية القحطانية" و"جمعية العهد" رفقة عزيز المصري، عثمان وشقيقه رفيق العظم الذي أسس في القاهرة حزب "اللامركزية الإدارية العثماني"، وشكري القوتلي الذي أصبح رئيس جمهورية سوريا، بالإضافة إلى عبد الرحمن شهبندر العقل المدبر للثورة السورية سنة 1925م (شهبندر، 1967، صفحة 6، 5)، فارس الخوري...، وغيرهم كثير (أنظر التعليق رقم 05).

وكعينة من هؤلاء النخب الذين أخذ الشيخ بيدهم ووجههم وكان له دور كبير في نجاحهم والتأثير عليهم، نأخذ محب الدين الخطيب الذي ولد في دمشق سنة 1868م،



وكان أبوه أبو الفتح أحد علماء دمشق الذي عمل أيضا أمينا في دار الكتب الظاهرية التي أسسها الشيخ طاهر منذ سنة 1879م. عندما بلغ محب الدين الخطيب سن السابعة توفيت أمه، وبعدها بأربعة سنوات توفي والده سنة 1897م. و بعد أن أصبح يتيما ترك المدرسة لمدة سنتين، إلى أن سخر الله له الشيخ طاهر الذي أخذ بيده وأحسن توجيهه فكان أبوه الروحي، أين سعى له عندما كان مفتشا من أجل إلحاقه بوظيفة أبيه في المكتبة الظاهرية، كما سعى له من أجل إعادته للدراسة في ثانوية "عنبر". وبين ما كان يتعلمه من علوم في الثانوية، وما يطالعه من نفائس المخطوطات والكتب العربية في المكتبة الظاهرية -التي كان يوجهه إليها الشيخ طاهر- تفتقت أكمال التفكير عند محب الدين، وزادت معارفه وثقافته من ملازمته لحلقة الشيخ طاهر حتى أصبح صاحب رسالة فكرية وأنشأ لنفسه حلقة علمية كانت تعرف بـ "الحلقة الصغيرة" -كما سبقت الإشارة إليها- (خرفي، مذكرات محب الدين الخطيب، 1972، الصفحات 88-95).

وعن كل هذا يقول محب الدين في مذكراته: "ثم قيض الله لهذا اليتيم الضعيف أستاذا في أسمى مراتب الإنسانية، فأخذ بيده وأحسن توجيهه في الطريق الذي هداه الله إليه في الحياة، الشيخ طاهر هو الإنسان الكامل، هو علامة الشرق، والإمام الحكيم...، فهو أبوه الروحي بعد والده الراحل" (الدين، 2011، صفحة 43)، وقال أيضا بأن من نعم الله عليه أنه عرف الشيخ طاهر في طفولته واتخذه أبا له: "...فبفضله عرفت طريقي بتوجيهه، ونظرت إلى أهدافي بعينه، وحررت رسالتي في الحياة بالذوق والمشرب للذين اقتبستهما منه" (برج م، 1972، صفحة 17).

أما تلميذه الآخر محمد كرد علي فيقول عن نفسه: "وكان العامل الأكبر في توجيه إرادتي نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي والإقدام على التأليف والنشر، وإشارتي محبة الأجداد ... أستاذي الأكبر الشيخ طاهر الجزائري...".

أما ما قيل من آراء وانطباعات حول سيرة الشيخ وجهوده في قيام النهضة العربية ففيها من الشواهد ما يغني عن أي إضافة لبيان دور وحجم وأهمية مساهمة هذا الشيخ الجليل في هذا المشروع، مثل شهادة محمد كرد علي الذي قال: "لولا ما قام به من التذرع بجميع ذرائع الإصلاح لتأخرت نهضة المسلمين في الشام أكثر من نصف قرن" (علي،



1948، صفحة 644)، و قال فيه الدكتور عدنان الخطيب: إن تاريخ النهضة الحديثة في مصر والشام مرتبط أشد الارتباط بحياة ثلاثة من عظماء الرجال، تدين البلاد العربية لهم كما تدين البلاد الإسلامية بإيقاد أول شعلة أيقظت العرب والمسلمين من سباتهم ... هؤلاء الثلاثة هم : جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وطاهر الجزائري". أما الأستاذ سامي الكيالي فقد قال : "استطاع هذا المصلح أن يخلق مدرسة في دمشق تقول برأيه وتسير وفق منهجه، وهي مدرسة ضمت الكثير من الأعلام والتي مهدت لنهضة دمشق الفكرية والعلمية..." (الدين، 2011، صفحة 101، 100).

#### 4- ومضات في مسيرة الشيخ طاهر من 1907 إلى 1920 م :

قبل أن يضطر الشيخ طاهر الجزائري للخروج من سوريا والسفر إلى مصر في سنة 1907م، كان الشيخ يعيش في ظروف صعبة جدا خاصة بعد توقيفه عن العمل كمفتش سنة 1886م، وبخصوص هذا التوقيف ذكر محب الدين الخطيب في مخطوط له بأنه نظرا للشهرة الكبيرة والسمعة الطيبة التي كان يتمتع بها الشيخ عند أهل الشام بسبب إيمانهم بإخلاصه وتفانيه في خدمة الصالح العام، خشيت السلطات التركية من ردود فعل أهل الشام من توقيف الشيخ بعدما باتت تتوجس خيفة من نشاطه، لذلك اضطرت هذه السلطات إلى إلغاء جميع "مفتشيات المعارف" في كل الولايات حتى يبدو عزله كأنه غير مقصود في الظاهر (برج م، 1990، صفحة 15).

كان الشيخ طاهر بسبب شدة هذه الظروف وأمام ضيق اليد، يضطر في الكثير من الأحيان عندما يصاب بالفاقة إلى بيع كتبه التي كانت عنده أعز ما يملك، وهو الأمر الذي يمكن أن يوضح لنا مبلغ الفاقة والفقر الذي بلغه، لكنه على الرغم من ذلك يُشهد له بأنه لم يتنازل عن مبادئه وأخلاقه وأهدافه، بحيث ظل متصفا بعفة النفس وعزتها، وبالزهد والمصابرة حتى قال عنه شيخ العروبة أحمد زكي باشا : "لا أكون إلى المبالغة إذا قلت إن عزة النفس كان مما انفرد به، ففيه إباء الملوك الصالحين وزهد الزاهدين العابدين، لم يظهر ظالما لغنم يصيبه، ولا صاحب غنيا للانتفاع بغناه..." (قتيبي، صفحة 152). واستمر طيلة هذه الفترة (21 سنة) في التدريس والبحث والدعوة والإصلاح بشكل حر، باستثناء الفترة التي اشتغل فيها كمفتش دور الكتب العامة في ولاية



سورية من 1898 م إلى 1902 م (مصيطفى، 2018، صفحة 497)، كما أن حلقته العلمية استمرت في دمشق حتى بعد خروجه إلى مصر بعدما حافظ عليها تلامذته وأصدقائه من بعده (برج م،، 1972، صفحة 37).

أما عن سبب سفره إلى مصر فقد تعددت الروايات بين من يرى بأنه قد جاء بسبب مضايقات رجال استخبارات السلطان عبد الحميد الثاني المتكررة له، اثر ارتياب السلطات التركية في النشاط الثقافي والدعوة الإصلاحية التي كان يقودها الشيخ وتخوف الحكومة من تداعياتها عليها (برج م،، 1972، صفحة 15). في حين هناك من يرى بأن الشيخ قد وجهت له السلطات التركية تهمة الاشتراك في إذاعة نشرات كانت جمعية "تركيا الفتاة" تذيعها للطعن في السلطان عبد الحميد الثاني واتهامه بالاستبداد (خرفي، الجزائر ودورها في النهضة العربية الحديثة في المشرق، 1975، صفحة 22). في ظل هذه الظروف الصعبة أدرك الشيخ بأن بقاءه في دمشق قد بات أمرا متعذرا فقرر السفر إلى مصر .

عندما حظ الشيخ رحاله في مصر يذكر محمد سعيد الباني بأنه لقي الكثير من الحفاوة والاحترام، ونال الحظوة الكبرى عند مثقفي وأعيان مصر، حتى فاقت مكانته بها مكانته في بلاد الشام (الباني، 1920، صفحة 115). وفيها استمر في نشر العلم والدعوة إليه، كما استمر في التأليف أين كتب عددا من المؤلفات مثل "توجيه النظر إلى أصول الأثر"، وأيضا "مختصر أدب الكاتب" ...، كما تجدر الإشارة أيضا إلى أنه قد اضطر في بعض الأحيان إلى الكتابة في الصحف (جريدة المؤيد) بمقابل زهيد لينفق به على نفسه (أنظر التعليق رقم 06).

كما ارتبط الشيخ أثناء إقامته في مصر التي استمرت إلى غاية 1919م بعلاقات كثيرة كان أغلبها مع مهاجري الشام، لاسيما من تلامذته وأصدقائه الذين وجدهم هناك مثل محمد كرد علي، محب الدين الخطيب ورفيق العظم الذين انخرط معهم في الحزب الذي أسسوه في مصر (خرفي، الجزائر ودورها في النهضة العربية الحديثة في المشرق، 1975، صفحة 23).



بعد دخول الجيش العربي إلى دمشق سنة 1918م بقيادة الأمير فيصل رغب الشيخ في العودة إلى الشام إلا أن إصابته بمرض "الربو" حال دون ذلك إلى غاية 1919م، وبعد عودته عينته الحكومة العربية مديرا عاما لدار الكتب الظاهرية التي أسسها منذ 40 سنة، وفي ذلك الوقت كان المرض يشتد عليه يوما بعد يوم إلى أن وافته المنية في جانفي 1920م وكتب العلم محيطة بفراشه (مصيطفى، 2018، صفحة 496).

#### خاتمة:

كان الشيخ طاهر الجزائري أحد أبرز العلماء الذين كان لهم إسهام وتأثير بالغ الأثر في قيام النهضة العلمية في بلاد الشام والمشرق عامة، مثله في ذلك مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ... وغيرهم من أعلام الفكر والإصلاح الذين ساهموا بقسط وافر في نفض غبار الجهل والأمية والجمود عن الأمة العربية والإسلامية، وسعوا بكل ما كان متاحا لهم من أجل نهضة المسلمين، ونشلهم من التخلف الذي كانوا فيه، وصيانة الأوطان العربية والإسلامية من الأخطار التي كانت محدقة بها.

أكثر مجال اشتغل عليه الشيخ في مشروعه النهضوي ودعوته الإصلاحية كان التربية والتعليم، اللذين أولاهما عناية كبيرة، انطلاقا من قناعته بأن العلم لا يبني الفرد فقط وإنما الأوطان أيضا، وهو سبيل الأمة في الأخذ بأسباب القوة والتقدم. ولعل ما يُحسب أيضا لهذا العالم الجليل في مسيرته التعليمية والإصلاحية هو أنه كان من دعاة التوفيق والمزاوجة بين الأصالة والمعاصرة، ذلك أن دعوته لإحياء التراث والعناية به لم تمنعه من الدعوة والحث على مواكبة روح العصر. ولعل ما يميّزه عن غيره أيضا -فضلا عما سبق ذكره- هو أنه لم يكتف بالتنظير فقط على شاكلة أغلب علماء هذه الأمة المعاصرين له آنذاك، وإنما باشر بنفسه تجسيد ما كان يدعو إليه في الميدان لذلك كان بحق عالما عاملا، ومن مثل هؤلاء كانت الأمة ولا تزال في حاجة ماسة إليهم.

لعل من بين أسباب نجاح الشيخ في مشروعه فضلا عن تنبئه لمكامن الخلل في الأمة لاسيما على الصعيد الثقافي، هو إتباعه لمنهج إصلاحي بسيط وواضح بعيد عن التعقيد أو الغموض في التصور والتجسيد، كما اختار أو استعان بوسائل عمل كانت إلى حد ما متاحة وهادئة لكنها لم تكن سهلة، كالتربية والتعليم من خلال التدريس والتأليف...، وفي



المقابل نأى بنفسه وبمشروعه النهضوي في البداية عن حقل العمل السياسي، وما يمكن أن ينجّر عنه من مشاكل وعقبات قد تؤدي إلى إجهاضه أو تعثره.

غير أن ما لا ينبغي أن يفهم من هذه الفكرة هو أن عمل الشيخ كان خاليا من الأبعاد السياسية، لاسيما وأنه كان يبدو في الظاهر كذلك بعدما جاء في قالب ثقافي-إصلاحي، وإنما كانت هذه الأبعاد حاضرة وملامحها أكثر ما ظهرت بعد انتقاله إلى مصر، ولو أنها تجلّت بشكل أوضح في ثمار جهوده مع تلاميذه وطلبته الذين تزعم الكثير منهم الحركة العربية القومية خلال الحرب العالمية الأولى وحتى ما قبلها، بعدما تخرجوا على يديه وتأثروا بتوجيهه وأفكاره الداعية إلى التفتح والتقدم والنهوض والتحرر...، مثل محب الدين الخطيب، رفيق العظم، محمد كرد علي، عبد الرحمن شهبندر، عبد الحميد الزهراوي، سليم الجزائري ومحمد سعيد الباني... وغيرهم.

### التعليقات والشروح:

- التعليق رقم 1: بينما يذكر الأستاذ أبو بكر بلقاسم ضيف الجزائري في تقديمه لكتاب الشيخ طاهر "الكافي في اللغة"، بأن أسرة الشيخ قد قدمت إلى دمشق مع الأمير عبد القادر، في حين أن المعروف بأن الأمير لم يقدم إلى دمشق إلا في سنة 1852م بعد إطلاق سراحه من السجن في فرنسا الذي بقي فيه أربع سنوات بعد وضعه للسلاح سنة 1847م. وقيل أن يستقر في سوريا مكث مدة من الزمن في تركيا.

- التعليق رقم 2: أعتقد بأن هذا الرقم يحتاج إلى تدقيق، وربما قد وصل إليه بعد استقرار الأمير عبد القادر فيها ابتداء من 1852م، أين أصبحت دمشق وجهة العديد من المهاجرين الجزائريين.

- التعليق رقم 3: وهذا ينطبق أيضا على التجربة النهضوية الأوروبية منذ منتصف القرن 14م التي أدخلت أوروبا في العصر الحديث، أين بدأت إرهاصاتها في مرحلة العصور الوسطى المتأخرة من القرن 10م إلى منتصف القرن 14م.

- التعليق رقم 4: وما يحضرني بخصوص هذا الأسلوب أو المنهج الذي اتبعه الشيخ في تعليم الناشئة هو أنه كان يتوافق مع رأي أو فكر ابن خلدون في هذه المسألة، وهو القائل: "... اعلم بأن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان شيئا فشيئا ورويدا



رويدا ... وإذا أُلقيت عليه الغايات في البدايات كلّ ذهنه وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه". ولعل الشيخ أيضا كان متبعا لذلك المثل الأوروبي في التعليم القائل بأن الأستاذ الناجح هو الذي يأخذ بيد الصغار ويعلمهم تسلق الشجرة، لا أن يبقى فوقها ويأمرهم بالصعود إليه.

- التعليق رقم 5: أنظر ترجمة أوسع لهذه الشخصيات في كتاب: يوسف أسعد داغر: المصدر السابق.

- التعليق رقم 6: و هنا أيضا كان يضطر الشيخ إلى بيع كتبه ليعيل نفسه، لكن ما سجله التاريخ لهذا الرجل بأنه لم يكن يبيع كتبه سواء في سورية أو مصر إلا لمن اطمأن قلبه بأنه يعرف قيمة تلك الكتب، وفي مصر كان يفضل بيعها لدار الكتب المصرية بنصف القيمة التي كان يمكن أن يحصل عليها من مثل المتحف البريطاني، وهذا إثارا ورغبة منه في بقاء هذه النفائس في الوطن العربي والإسلامي على انتقالها إلى أوروبا.

#### قائمة المصادر والمراجع:

- حازم زكريا محي الدين، (2011). الشيخ طاهر الجزائري 1852-1920 رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث. دمشق: دار القلم.
- حامد صادق قتيبي، (بلا تاريخ). "الشيخ طاهر الجزائري أستاذ بلاد الشام سيرته ومنهجه في التعريب 1851-1920". مجلة الصراط ، 2 (1)، الصفحات 149-161.
- صالح خرفي، (أفريل-ماي، 1975). "الجزائر ودورها في النهضة العربية الحديثة في المشرق". مجلة الثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، (26)، الصفحات 5-39.
- صالح خرفي، (جانفي، 1972). "مذكرات محب الدين الخطيب". مجلة الثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، (6)، الصفحات 86-97.
- طاهر الجزائري، (1986). الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية. بيروت: دار ابن حزم.
- طاهر الجزائري، (2007). الكافي في اللغة، ط 1. بيروت: دار ابن حزم.
- عبد الرحمن شهبندر، (1967). مذكرات. بيروت: دار الإرشاد.
- علي خضرة، (جانفي، 2018). "الشيخ طاهر الجزائري وجهوده في تفسير القرآن الكريم و بيانه". مجلة المنهل ، 4 (1)، الصفحات 126-140.



- عمار هلال، (نوفمبر-ديسمبر، 1989). "الهجرة الجزائرية نحو الولايات العثمانية في المشرق العربي 1889-1918". مجلة الثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، (84)، الصفحات 154-87.
- مازن المبارك، (دبي جوان، 1992). "آثار الشيخ طاهر الجزائري 1852-1920". مجلة آفاق الثقافة والتراث (1)، الصفحات 60-46.
- محمد السعيد مصيطفى، (مارس، 2018). "الشيخ طاهر الجزائري وإسهاماته العلمية". مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية (33)، الصفحات 503-488.
- محمد برج، (جانفي، 1972). "طاهر وسليم الجزائريان رائدا النهضة الحديثة في المشرق". مجلة الثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، (6)، الصفحات 45-31.
- محمد سعيد الباني، (1920). تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر. دمشق: مطبعة الحكومة العربية السورية.
- محمد عبد الرحمن برج، (1990). محب الدين الخطيب ودوره في قيام الحركة العربية 1906-1920. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- محمد كرد علي، (1948). المذكرات (ج 2). دمشق: مطبعة الترقى.
- يوسف أسعد داغر، (1983). مصادر الدراسة الأدبية (ج 2). بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية.